الحرب موضوعا في أشعار الرثاء النسوي في الجاهلية دراسة موضوعية

مروة خليل جبار
جامعة الانبار/ كلية التربية للبنات

الخلاصة

لقد عرفت الإنسانية منذ القدم الصراعات فيما بينها على مر العصور ، فالذات الإنسانية جبلت على الخير والشر.

وفي العصر الجاهلي كانت الحياة ذات سمة قبلية ومجتمعها بدوياً تحكمه عادات وتقاليد طابعها صحراوي وما تمثله الصحراء من الوعورة والشدة والوحشية ، كل ذلك ترك أثراً واضحاً على الإنسان العربي وطُبِع تفكيره بطابع خاص.

فبيئة العرب بدوية على الأغلب ، والبدو دائمو الترحال يتبعون الكلأ والماء ومواقع الغيث أينما وجدت ،وعاشت القبائل العربية منفصلة مكانياً عن بعضها تحكمها علاقات قائمة على العهود والأحلاف ، كما حكمتها الصراعات في أحيان كثيرة ، وكان للطبيعة القاسية التي عاش فيها العرب اثر واضح في تدعيم هذا الصراع ، ولأن البيئة القاحلة تفرض في أوقات الجدب صراعاً على موارد الحياة رفعت تلك السمة الحياتية للصراع من مكانة (الغزو) ليصبح حالة يفتخر فيها العربي بالفعل البطولي ، بل إن الغزو تحول إلى معيار للرجولة والبطولة الحقيقية إلى جانب كونه استجابة لمتطلبات العيش على نحو ما نجد عند الصعاليك [1]

تلك الأمور أدت إلى كثرة النزاعات بين القبائل ، فكان الترحال المستمر احد أسباب الصراعات والحروب بين القبائل فضلاً عن أسباب أخرى كثيرة منها اقتصادية واجتماعية ، وهي دوافع مشروعة إذا ما وضعت في إطارها الحقيقي ، مع إن هناك كثير من يغالي في تقدير الصراع فيقول : ((فإذا أخلفت السماء و أمحلت الأرض ، أكل بعضهم بعضاً)) [2]

ويمكن تحديد دوافع الصراع وفقاً لطبيعتها وفي مقدمتها الدوافع الاجتماعية القائمة على مبدأ (الأخذ بالثأر) التي يقول عنها أحد الباحثين ((سيطرت على عقل البدويّ ، الذي لا يرتاح ولا يغمض له جفن قبل الأخذ بثأره ، وتعظم المصيبة عندما لا يكتفي الرجل بالثأر من القاتل فحسب ، إنما يصمم على إبادة القبيلة)) [3].

ومن الأسباب الأخرى في الصراعات والحروب هو الخوف وعدم الشعور بالأمن لاسيما في المواقف التي تطول فيها الحروب وتصبح الإبادة سمة ملازمة إلى جانب التخوف من المستقبل الذي لا يعرف الإنسان ما يجنى له ولهذا أصبحت الحرب عند العرب سمة بارزة وشريعة مقدسة لا يتُوانى عنها فهي ((أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ، ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الأكثر إما غيرة ومنافسة وإما عدوان وإما غضب الله ولدينه وإما غضب للملك وسعي في تمهيده ...)) [4]. فالحرب تمثل قيمة اجتماعية وسياسية عند العرب يحققون من خلالها وجودهم وكيانهم وقوتهم عندما يشعرون بالخطر والتهديد الخارجي

وقد مثلت مراثي النساء في شعر الحرب جزءًا واسعًا من حياة العرب آنذاك لما قامت به من دور بارز في إشعال نار الحرب لمكانتها الكبيرة داخل المجتمع العربي ، ولما في الرثاء من إظهار الحزن واللوعة والفقدان فهو اقرب إلى عاطفتها وصدق إحساسها .

موضوعات الرثاء النسوي في شعر الحرب

مثلت الحروب الملاحم الشعرية التي أجاد فيها شعرائها بقول الشعر وهذه الحروب أو الأيام خلفت وراءها ضحايا كُثُر وأزهقت فيها الأنفس . ((وكان كلُّ يَوْمٍ يخلّف وراءه صَرْعَى ، وكل صريع تندبه النوادب من أهله وقبيلته . فكنَّ يلطمن ويخمشن وجوههن ويحلقن رءوسهن ويشققن جيوبهن ويقرعن صدورهن على من طوّحَ به الأعداء أو طوّحت به الأقدار إلى مهاوي القبور)) [5]. فهي طقوس وعادات أقرب ما تكون أسطورة مثلت حياة العرب في عصر ما قبل الإسلام وجسدت جزءًا كبيراً من حياتهم في الحروب من خلال ما وصل إلينا من رثائهم لقتلاهم فتعددت صور هذه العادات .

فالرجال يحرمون على أنفسهم شرب الخمر والاغتسال ودهن الشعر والنساء إلا بعد أخذ الثأر فيحلون لأنفسهم ما حرموا عليها كما فعل المهلهل بن ربيعه عند مقتل أخيه كليب ، وامرؤ القيس عندما طلب ثأر أبيه من بني أسد قائلاً : [6]

لا تَسْـقِني الخمـرَةَ إن لـم يُـرَوْا قَتْلَـى فنامًـا بـأَبي الفاضـل

حتـى أبيـر الحـيَّ مـن مالـكٍ قَـتْلاً وَمَـنْ يَشْـرُف مـن كـل كاهِـل

فالمعنى واضح فهو يتطلب عدم سقيه الخمر حتى يأخذ بثأر أبيه من قبيلتي مالك وكاهل ومن الأشرف منهم . ومن عاداتهم في الحروب أيضاً (جز النواصي) فكان العرب ((إذا أسروا رجلا، ومنوا عليه فأطلقوه، جزوا ناصيته))[7] والناصية تكون عند الرجل الشريف يفخر بها.

قالت الخنساء ترثي إخوتها [8]:

جَزَرْنـــــا نَوَاصـــــي فُرْســـــانها وكـــانوا يظُنُّـــون أن لَـــنْ تُجَـــزَّا
فَمَـــنْ ظَـــنَّ مِمَّـــن يُلاقـــي الحُـــرُوبَ بـــأن لـــنْ يُصَـــاب فقـــد ظَـــنَّ عَجْـــزَا
فَبَـــكّ علـــى صَـــخْرِ ، صَـــخْرِ النَّـــدى وَمَـــا انفطَـــرَ القَلْـــبُ حَتَّـــى تَّعَـــزَّى
نَعِـــفُّ ونعِـــرفُ حَـــقَّ القِـــرى وَنَتَّخِـــذُ الحَمْـــدَ مَجْـــداً وكنـــزا
وَنَلْـــبسُ فـــي الحَـــرْبِ نسْـــجَ الحديـــدِ ونَلْـــبَسُ فـــي الأمْـــنِ خـــزَّا وَقَـــزَّا

وإذا ما تتبعنا آثار هذه العادات المصاحبة للرثاء في شعر النساء الجاهليات تطالعنا في الأنماط المختلفة للرثاء حقيقة مهمة وهي طغيان تلك العادات وذكرها في بعض الأشعار على نحو ما نجد عند الخنساء ، ومن نظمت على منوالها وغياب أو شبه غياب لتلك المظاهر عند شاعرات أخريات ، وعموماً فان للنوح ، والندب والبكاء والعويل ولبس الصِّدار أثرا واضحا في الشعر الجاهلي لاسيما عند كثير من النساء الشاعرات ، ومنهن الخنساء التي اشتهرت بلبس الصدار ، فالنساء الجاهليات تعودن ((أن يبكينَّ وينحن على الميت والقتيل حيث يقمن بحلق الشعر ، ولبس الصدار، وقرع الصدور بالنعال ، وشق الجيوب)) [9].

فشق الجيوب ونعي الميت [10]، والبكاء عليه عند المرأة الجاهلية تقديراً وإكراماً وتبجيلاً للميت ، وكان أهل الجاهلية وخاصة النساء يستغلون النعي في التحريض على القتال . والأخذ بالثأر ((فكن يضربن وجوههن بالنّعال عند المصيبة ويحلقن رؤوسهن قال الأعراب : المرأة إذا تسَلَّت عندنا لبست شرّ ما تجد من اللّبُوس وحَلَقَتْ رأسَها ، وانتعلت بنعلين ،أو لم تنتعل ، وليس الضرب بالنعل على الوجه بشيء ، وإنما تلبس النعلين للزهد في الدنيا ، وللحزن على حَمِيْمَهَا))[11].

وهو ما عبرت عنه الخنساء في رثاء أخيها معاوية [12]:

هَـــرِ يقـــي مِـــنْ دُمَوعِـــكِ واسْـــتفيقي وَصـــبْراً إنْ أَطَقـــتِ وَلَـــنْ تُطيْقـــي
بعاقبـــةٍ فـــإنّ الصَّـــبْرَ خَيْـــرٌ مِـــنْ النَغْلـــينِ والـــرَّأْس الحَلِيـــقِ

والخنساء هنا تأمر نفسها وتحثها على البكاء بطريقة تُصْدع القلوب من الحزن والأسى بما ينم عن مشاعر المرأة بمسلك أنثوي وعاطفة قوية اتجاه الفقيد (أخيها) فتطلب سكب الدموع . فإن أهرقت دموعها سلت نفسها واستراحت بشيء من الصبر ولوقت محدد لنفسها عن طريق هذه الدموع ، ولتصبر نفسها إن استطاعت الصبر بالأمر الذي حدث فـ ((الصبر عند المصيبة يخُمد في عاقبة الأمر))[13]. مع إن تمثل الأبيات لا يوحي بهذا المعنى لأنها ترى إن الدموع مهما سالت

بغزارة لن تفيد على تحمل مشقة الحزن والألم ، وتصل إلى تقدير حقيقة تجرع مرارة الصبر على فقدان الأخ خير من كل مظاهر الحزن التي أَلِفَتها وقامت بها مثل تعليق النعلين وحلق الرأس ، وواضح هنا غلبة الروح الإسلامية وهي نقلة نشهدها في أشعار الخنساء الرثائية ، وربما كانت قد توصلت إلى هذه الحقيقة في جاهليتها حين طال بها مشوار البكاء واعتادت اللوعة مكتشفة أن لا جدوى فكل شيء تفعله تعبر به عن حزنها ومن نماذجه الأخرى قول آمنة بنت عُتيبة [14]:

تَرَوَّحْنَـــا مِـــنَ اللَّعْبَـــاءِ عَصْـــرَا فَأَعْجَلْنَـــا إلاَّلاَهَـــةَ أنْ تَؤُوبَـــا

علـــى مِثْـــلِ ابـــن مَيَّـــةَ فانْعَيَـــاهُ بِشَـــقَّ نَـــوَاعِمِ البَشَـــرِ الجُيُوبَـــا

وَكَـــان أبـــي عُتَيْبَـــة سَـــمْهَرِيًّا فـــلاَ تَلْقَـــاهُ يَـــدَّخِرُ النَّصـــيبَا

ضَـــرُوباً للكمـــيَّ إذا اشْـــمَعَلَّتْ عَـــوانُ الحَـــرْب لاَ وَرِعـــاً هَيُوبَـــا

فعمدت الشاعرة في هذه الأبيات إلى تعذيب نفسها وإيذائها لفقدها أبيها المقتول ، فصورت حزنها وفجيعتها عليه ، وافتقادها إلى الأمن وإحساسها بالقلق فاستعجالها الرحيل من المكان الذي دلت علية لفظة (اللعباء) قبل غروب الشمس يدل على ذلك فربطت غروب الشمس بانتهاء الحياة وغروبها بموت والدها الذي كان كالرمح الصلب في شدته وشجاعته فهو في الحرب لا يهاب الموت . فاستطاعت الشاعرة بحسها الأنثوي أن ترسم ((صورة حزينة لغروب الحياة . فكل شيء في نظر الشاعرة هنا ، يلم أشياءه ويجنح إلى الغروب . حتى الالاهة مادام رمز حياتها وبقائها وهو أبوها ، قد غادر إلى الأبد)) [15].

إن المرأة في العصر الجاهلي كان لها أثر بارز في رفع حماسة المقاتلين ولها الكثير من المواقف التي تشهد لها بذلك فكانت المحرضة الثائرة التي لا يهدأ لها قلب ولا يغمض لها جفن إلا بأخذ الثأر وإقامة الحرب رداً للاعتبار وأخذاً بالثأر الذي يمثل اطمئناناً وارتياحاً لأهل القتيل وحفظ لمكانة القبيلة وهيبتها

((فللمرأة في شعر الحرب مواقف مشهودة ، ولها من الموثبات ما هزت به المشاعر ، وأثارت الكوامن ، ورفعت فيه الحماسة ، ودفعت المقاتلين إلى أن يخوضوا غمار الحروب ، ويقدموا ضروب البسالة ، ويضربوا أروع نماذج التضحية والفداء)) [16].

وقد ارتبط موضوع الرثاء بهذه الحروب ارتباطاً وثيقاً لكونه ارتبط بشعر الحماسة لأن الشاعر أو الشاعرة يعرض لصفات المرثي من شجاعة وكرم وبسالة ... بعدها ينتقل إلى ندب الأبطال وتعداد مناقبهم ، وقد تميزت المرأة وأبدعت في مجال الرثاء ، (في المواقف الحربية خاصة)

ولعل السبب في ذلك يعود إلى ما في الرثاء من إظهار اللوعة التي تصيب صاحبتها وما يمثله من الحزن والأسى بفقد الأحبة وعبرت الخنساء في رثائها عن ذلك عندما حاولت الملاءمة بين الفجيعة والأسى على فقدان المثل والدعوة إلى إدراك الثأر لغسل العار قائلة:[17]

يـا عَـيْنِ جُـودِي بِـدَمْعٍ مِنْـكِ مِغـزارِ وأبْكِـي لصَـخْرٍ بِـدَمْعٍ مِنْـكِ مِـدْرَارِ
إنَّـــي أرِقْـــتُ فَبِـــتُّ اللَّيْـــلَ سَـــاهِرَةً كأَنمـــا كحلـــتُ عينـــي بعـــوار
أرعـــى النجـــوم ومـــا كُلِّفْـــتُ رِعْيَتَهَـــا وَتَـــارَةً أَتَغَشَّـــى فَضْـــلَ أطْمَـــارِي
وَقَـــدْ سَـــمْعتُ وَلَـــمْ أَبْهِـــجُ بِـــهِ خَبَـــراً مُحَـــدَّثُا جَـــاءَ يَنْمِـــي رَجْـــعَ أَخْبَـــارِي
يَقُـولُ صَـخْرٌ مُقِـيمٌ ثَـمَّ فـي جَـدَثٍ لَـدَى الضَّـرِيحِ صَـرِيعٌ بَـيْنَ أَحْجَـارِ
فَاذْهَـبْ فَـلا يُبْعِـدَنْكَ الله مِـنْ رَجُـلٍ دَرَّاكِ ضَـــيْمٍ وَطَـــلاَّبٍ بِأَوْتَـــارِ
قَـدْ كُنْـتَ تَحْمِـلُ قَلْبـاً غَيْـرَ مُهْتَضَـمٍ مُرَكَّبـــاً فـــي نِصَـــابٍ غَيْـــرِ خَـــوَّارِ
مِثْـلُ السَّـنَانِ تُضِـيء اللَّيْـلَ صَـورَتُهُ مُـــرُّ المَـــرَارَةِ حُـــرٌّ وابـــن أحْـــرَارِ

فهي تعدد صفات صخر مفتخرة ومادحة إياه مؤكدة على استمرارها في البكاء عليه لتنتقل إلى التهديد والتحريض في قولها

أبلـــغ خفافـــاً وعوفـــاً غيـــر مقصـــرةٍ عميمـــة ســـوف يبـــدو كـــل أســـرارِ
والحـــربُ قـــد ركبـــت جربـــاء بـــاقرة حلـــت علـــى طَبَـــق مـــن ظهرهـــا عـــارِ
شُـــدوا المـــآزر حتـــى يســـتذِف لَكُـــمْ وَشَـــمروا إنهـــا أيَّـــامُ تشـــمارِ

وتحض قومها على بكائه بكاء من أحاطته الأقدار من كل جانب وليبكوا شديد البأس الشجاع مشبهة إياه بالأسد الهصور أي الشديد الشجاعة .

وباستخدام أسلوب السرد القصي الذي مثل السمة الغالبة عن شعرها المتعلق بصخر تحديداً تروي تفاصيل مقتلة فتقول:

تجللتـــه رمـــاح القـــوم عـــن عُـــرُضٍ فـــي جـــارة المـــوت مطلوبـــاً بأوتـــار
كـــان ابـــن عمكـــم مـــنكم وضـــيفكم فـــيكم فلـــم تـــدفعوا عنـــه بأخفـــار

وفي هذا البيت توبخ أبناء عمومته لعدم دفاعهم عنه، وهو يجار عليه ظلماً مستمرة في توبيخهم والتعريض بهم إلى أن يدركوا بثأرهِ قائلة: [18]

لـــوْ مـــنكمُ كـــانَ فينـــا لـــمْ ينـــلْ أبـــداً حتـــى تُلاقَـــى أُمُـــورٌ ذاتُ آثـــارِ

أعنـــي الـــذينَ إلَـــيْهِمْ كـــانَ منزلُـــهُ ... هـل تَعرِفـونَ ذمـامَ الضّـيفِ والجـارِ؟
لا نَـوْمَ حتـى تَعـود الخَيـلَ عابِسَـة ... يَنْبُـذْنَ طِرْحـاً بمُهْـراتٍ وأمْهـارِ
أو تحفـروا حفـرةً والمـوتُ مكتنـعٌ ... عِنْـدَ البُيـوتِ حُصَـيناً وابـنَ سَـيّارِ
فَتغسِـلُوا عـنكُمُ عـاراً تجلَّلكـمْ ... غسـل العَـوارِكِ حَيضـاً بعـد أطهـارِ
حـامي العَرينِ لـدى الهَيجـاءِ مُضْـطَلَع ... بـذي سـلاحٍ وأنيـابٍ وأظفـارِ
بفيلـق الخيـل تنـزو فـي أعِنتهـا ... مثـل الأُسـودِ تَوَافَـتْ عِنـد جرجـارِ

وعن هذه الأبيات يقول أحد الباحثين ((إن هذا النمط من الرثاء يقوم بتأدية مهمتين توثيبيتين، ترمي أولاهما إلى غاية تربويه تنسجم والفترات السلمية ، فتدعوا إلى تعميق المفاهيم الأخلاقية التي أصبحت أعرافاً وتقاليد لا يمكن خرقها ، كالكرم ، والصدق والوفاء ، والعفة والشرف والشجاعة وجميع ما ينطوي تحت مفهوم المروءة في أوقات السلم . وترمى ثانيها إلى غاية حربية ، وتوثب إلى قيم لها مساس بوجود القبيلة وشرفها فتدعو إلى إطراح الذل والخنوع. والمسارعة إلى إدراك الثأر واسترجاع الكرامة المهانة والدعوة الصريحة إلى الانتقام من الأعداء)) [19].

لقد أبدعت المرأة في الرثاء لأنه أقرب إلى عاطفتها وصدق إحساسها كما إنه يمثل تعبيراً حقيقياً للمشاعر والأحاسيس بعيداً عن التكلف والابتذال نابعاً من نفس إنسانية حزينة .

فعاطفة المرأة وسرعة تأثرها جعلها أكثر إجادة في هذا اللون دون غيره فهي ((أشجى الناس قلوبا عند المصيبة ، وأشدهم جزعاً على هالك ؛ لما رَكْبَ الله عز وجل في طبعهن من الخَوَرِ وضعف العزيمة)) [20].

على إننا نجد في قصائد رثائية أخرى تياراُ مختلفاً من الرثاء لا يقوم على النواح والعويل الذي ألفناه عند الخنساء لاسيما في القصائد التي تتناول فكرة الحرب بوصفها موضوعاً لقصيدة الرثاء طالما أن الأمر يتعلق بالفرسان . وهو التيار الذي ابدعت فيه وأجادت الشاعرة جنوب أخت عمرو ذو الكلب لأنه طغى على مراثيها بشكل لافت فرثت أخاها قائلة [21]:

فأقسـمتُ يـا عمـرو لـو نبهـاك ... إذاً نبهـا منـك أمـراً عضـالا
إذا نبهـا ليـث عريسـةٍ ... مفُيـداً مُفيتـاً نُفُوسـاٍ وَمَـالا
هِزَبْـراً فروسـاً لأعدائِـهِ ... هصـوراً إذا لقـي القِـرن صَـالا
هُمـا مـع تصـرف ريـب المنـونِ ... مـن الأرض رُكْنـاً ثبيتـاً أمـالا

هُمـــا يـــومَ حُـــمَّ لـــهُ يَوْمُـــهُ وقـــالَ أَخُـــو فَهْـــمَ بُطْـــلاً وفـــالا
وقـــالوا قتلنـــاهُ فـــي غـــارةٍ بآيـــة مـــا أن ورثنـــا النبـــالا
فهـــلاّ إذا قبـــل رِيـــب المنـــونِ فقـــد كـــان رجـــلاً وكنـــتم رجـــالا
وقـــد علمـــتْ فهـــمُ عِنـــدَ اللقـــاءِ بـــأنهم لـــك كـــانوا نفـــالا

ففي مثل هذا النوع من المراثي مثلت جنوب تياراً بموازاة تيار الخنساء الرثائي [22] وفي هذا النحو نلاحظ ارتفاع وتيرة ذكر الثأر على حساب التفجع والبكاء كما نلمح عند جليلة بنت مرة في قولها: [23]

يانســـائي دونكـــن اليـــوم قـــد خصـــني الـــدهر بـــرزء معضـــل
خصـــني قتـــل كليـــب بلظـــى مـــن ورائـــي ولظـــى مســـتقبلي
لـــيس مـــن يبكـــي ليوميـــه كمـــن إنمـــا يبكـــي ليـــوم ينجلـــي
درك الثـــائر شـــافيه وفـــي دركـــي ثـــأري ثكـــل المثكـــل
ليتـــه كـــان دمـــي فـــاحتلبوا دررًا منـــه دمـــي مـــن أكحلـــي
جـــلَّ عنـــدي فِعـــل جســـاس فيـــا حســـرتا عمـــا انجلـــت أو تنجلـــي
إننـــي قاتلـــة مقتولـــة ولعـــل الله أن يرتـــاح لـــي

فالشاعرة افتتحت قصيدتها بطلب كف اللوم عنها إذ أن مصابها بفقد زوجها وقتل أخيها لزوجها فاجعة حلت بها ، وإن الدهر قد خصها بنار تستعر من خلال لفظة (لظى) في مقتل زوجها ، ونار أخرى عند طلب الثأر من القاتل وهو أخوها فمصيره الموت حتماً ، وليس بكاؤها كبكاء النساء فهي لا تبكي ليوم واحد وينقضي هذا اليوم فبكاءها لحادثتين دائمتين لطلب الثأر فالبكاء عندها هو دائم لا يشبه أي بكاء .

وفي قولها :

درك الثـــائر شـــافيه وفـــي دركـــي ثـــأري ثكـــل المثكـــل

فالعرف المتعارف عليه عند إدراك الثأر من القاتل هو ارتياح أهل المقتول ورد شرف القبيلة واعتبارها بين القبائل واستعادة هيبتها وقوتها . لكن الثأر عند جليلة نار تتلظى فليس فيه شفاء لغليلها ولا إطفاء نار الحزن التي أحرقتها وذلك لأنه ثأر مثكل متمنية لو أن دمها هو الذي هدر بدلاً عن الدماء المهدورة والتي ستهدر لمدة طويلة، وقد تحقق ما تنبأت به من اشتعال الحرب التي دامت أربعين سنة ، وهي حرب البسوس.

وفي الأبيات الأخيرة تظهر متحسرة متألمة متفجعة على ما فعلهُ أخوها فهي المقتولة أولاً وَأخيراً جراء تلك الأحداث وبعدها تختتم برجاء في قولها (لعل الله أن يرتاح لي) أن الله يريحها من ثقل نفسها ، والحزن الذي ملأ حياتها .

وهو أمر طبيعي طالما أن المرأة توقعت إن يحين دور أخيها في القتل لأنها تدرك إنها نتيجة حتمية يسعى إليها أهل زوجها القتيل فما وجدت وهي تحت ثقل هذه المأساة غير فكرة تمنى الموت ، كما أنها قد تكون أرادت بقولها (قاتلة مقتولة) الإشارة إلى زوج قتيل وأخ قاتل طالما أنهما أقرب الناس إليها .

فقصيدتها حملت صدق المعاني ، وحرارة المشاعر ، وشدة العاطفة في إظهار الفاجعة وعظم المصاب ، وقال عنها أبن رشيق: ((ما أشجى لفظها ، وأظهر الفجيعة فيه وكيف يثير كوامن الأشجان ، ويقدح شرر النيران)) .[24]

كما قال عنها المبرد : ((قصيدة محيطة بالمعنى المقصود، جيّدة الكلام بوفرة التشكي)) . [25]

ولا يعني ذلك أن المرأة التي تسير على هذا المنوال في رثائها (أي التحريض) لا تبكي قتيلها لكن البكاء عندها يمتزج بالحمية إلى جانب الواقعية الواضحة لأنها تدرك إن البكاء وحده ليس مجدياً مع إن البكاء مسألة تجيدها ((النساء أكثر من الرجال الذين يقوون على المصائب ويضبطون انفعالات مشاعرهم ويحبسون انهمار دموعهم إلا ما تسرب منها قهراً)) .[26]

كما أنه ((يختلط عندهن بالتهديد والوعيد ، وإثارة روح الانتقام ، فالشاعرة لم تكن تقول رثاءاً قاصراً على البكاء وحدة ، وإنما كان يمتزج بالتحريض والأخذ بالثأر)) . [27]

وهذا كثير ما نلحظه عند شاعرات الحروب من ذلك قول ماريه بنت الديان تحرض قومها وترثي مرة بن عاهان وكانت قتلته باهلة في يوم إرمام . [28]

قـــل للفـــوارس لا تَئِـــلْ أَعيـــانَهم ... مـن شـرِّ مـا حَـذروا ومـا لـم يُحـذرِ
التـــاركينَ أَبـــا الحُصْـــينِ وراءَهـــم ... والمســـلمينَ صـــلاءَةَ بـــنَ أَلعنبـــر
لمّـــا رأيـــتُ الخيـــل قـــد طافـــتْ بـــه ... شـــنجت شـــمالُك فـــي عنـــان الأشـــقرِ
ولقـــد بكيـــتُ علـــى شـــبابك حقبـــةُ ... حتـــى كبـــرتَ وليـــت أن لـــم تكَبـــرِ
يـــا معشـــرَ الأبنـــاءِ إن فـــزتم بهـــا ... فـــوز الزّبيـــرةِ جمُعنـــا لَـــمْ يُثْـــأَرِ
فـــأَبوكمُ قَـــرْوٌ شـــرى كهلانَكُـــمْ ... وعمـــودُكم صُـــلْبٌ كـــريمُ المُكْســـرِ

فنلمح حضور الحرب لا بوصفها سببا للفقد ومدعاة لرثاء المفقود وحسب بل حالة تنفذ منها الشاعرة إلى تبيان خصال الفرسان ، ومناسبة تسجل فيها موقفاً خاصاً من قضية الحرب التي تراها حالة بشعة مختتمة ببيتين فيهما غاية الذل والمهانة والجبن ساعية من خلال هذه الألفاظ إلى تحقيق ما تصبوا إلية وهو إثارة النخوة فيهم وتحفيزهم على إدراك الثأر ، وقول مرة بنت عاهان ترثي أباها ، وتحرض قومها للأخذ بالثأر[29] .

إنـــا وياهلَـــةَ بـــنَ أعصـــر بينَنَـــا داءُ الضـــــرائرِ بُغْضَـــــة وتنـــــافِ
مـــن يَثْقَفُـــوا مِنَّـــا فلـــيسَ بآيِـــبٍ أبَـــداً وَقَتْـــل بَنِـــي قتيبـــة شَـــافِ
ذَهَبـــت قتيبـــةُ فـــي اللقـــاءِ بفـــارسٍ لا طـــــائِشٍ رَعِـــــشٍ ولا وَقَّـــــافِ

وقول أسماء أخت كليب تحرض قومها على اخذ الثأر لأخيها المقتول من قصيدة رثائية طويلة منها [30]

يـــــابني تغلـــــب لا تتـــــأخروا واطلبـــوا ثـــأر مليـــكِ الجحفـــلِ
إننـــــي قاتلـــــة مقتولـــــة فعســـى الأيـــامَ أن تعقـــب لـــي

فهي تطلب من قومها الإسراع بإدراك الثأر لأخيها المقتول فهو الملك الشجاع وتردد قول جليلة في رثاء زوجها كليب (إنني قاتلة مقتولة). متمنية أن تأخذ بحق أخيها من قاتليه ، وقد يكون تداخل الروايات سبباً في هذا التشابه بين الأشعار لأننا نلمح كثيراً من انصاف الأبيات المكررة التي كادت تشكل ظاهرة ملازمة لأشعار الرثاء عموماً ، أو أن ضرباً من تناص الصيغ الذي ألفناه في القصيدة الجاهلية عموماً [31]

وقول كبشة أخت عمرو بن معد يكرب ترثي أخاها عبد الله (32)

أَرسَـــلَ عبـــد الله إذْ حـــانَ يومُـــه إلـى قَوْمِـه لا تَعْقِلُوا لَهُمُ دَمِـي
ولا تأخـــذوا مـــنهم أفـــالا وأبْكُـــرا وأُتْـــرَكَ فـــي بيـــتٍ بصَـــعْدَة مُظْلِـــمِ
ودَع عنـــك عمـــراً إنَّ عمـــراً مُســـالِمٌ وهـــل بَطْـــنُ عمـــروٍ غيـــرُ شِـــبْرٍ لمطْعَـــمِ
فَـــإنْ أَنْـــتُمُ لـــم تَثْـــأَرُوا وَاتَّـــدَيْتُمُ فَمَشُّـــوا بِـــآذَانِ النَّعَـــامِ الْمُصَـــلَّمِ
ولا تـــــردوا إلا فضـــــول نســـــائكم إذا ارتملـــت أعقـــابهن مـــن الـــدمِ
جَـــدَعْتُم بعبـــد الله ســـيَّدَ قومـــه بنـــي مـــازنٍ أن سُـــبَّ ســـاقي المُحِّـــرَّمِ

فالشاعرة هنا تحض على الأخذ بالثأر وعدم قبول الدية أو الفدية التي يقدمها أهل القاتل لأهل المقتول ، وتنقل وصية أخيها إلى قومه يوم خرج إلى القتال قائلاً لهم : لا تعقلوا دمي بأخذ الدية سواء كانت أفالا وبكراً فالشاعرة (حقرت) الديات كما يقول الخطيب التبريزي وفي البيت الثالث تعير أخاها بعدم أخذه الثأر وقبول الدية ، قائلة : دع عنك عمراً فإن عمراً مسالماً . أتركوه ولا تأخذوا برأيه فالقتيل في مذهبهم لا يرتاح في قبره إلا عند الأخذ بثأره فـ ((كانوا يزعمون أن المقتول إذا ثأروا به أضاء قبره فأن أهدر دمه أو قبلت ديته يبقى قبره مظلماً))[33] وأشارت في البيت الرابع إلى أنهم إن لم يثاروا فسيمشون بغير آذان تشبيه لهم بالنعام كناية عن ذلهم وهوانهم .

فالشاعرة لا تريد إلا أخذ الثأر ولا شيء غيرة فالدم لا يُعدَل إلا بالدم فأخذ الثأر عادة مقدسة عند الجاهليين ((لأن العرف القائم في الصحراء ينص على أن الدم لا يغسله إلا الدم . فإذا قتل فرد أو ظلم أو اعتدي عليه فله الحق في إنزال العقاب بالجاني جزاء عمله الذي اقترفته يداه ، ولأن الدم المراق هو دم الجماعة كلها)) .[34]

من هذا المنطلق تحول الثأر والدعوة إلى الأخذ به سمة لازمت مراثي النساء لاسيما تلك القصائد والمقطوعات التي تنظم بعد زمن القتل بقليل وأغلب الظن إن المرأة العربية تعد هذا الأمر جزءاً أساسياً يعكس حقيقة دورها في المعركة لأنها غير قادرة بحكم التقاليد على حمل السلاح وخوض المعارك ، فهذه جنوب وهي ترثي عمراً تحرض قومها على الأخذ بثأره بأسلوب جزل تتضح فيه الجرأة والقوة والتهديد الواضح قائلة [35]:

أَبلِـــغْ بَنـــي كاهِـــلٍ عَنّـــي مُغَلْغَلَـــةً ... وَالقَـــوْمُ مِـــنْ دُونِـــهِمْ سَـــعْيا وَمَرْكـــوبُ

والقَـــومُ مِـــنْ دُونِهِـــمْ أَيْـــنٌ ومَسْـــغَبَةٌ ... وذاتُ رَيْـــدٍ بهـــا رِضْـــعٌ وأُسْـــلوُبُ

أَبْلِـــغْ هُـــذَيْلاً وَأَبْلِـــغْ مَـــن يُبَلِّغُهـــا ... عَنّـــي حَـــدِيثاً وَبَعَـــضُ القَـــوْمِ تَكْـــذِيبُ

بِـــأَنّ ذاَ الكَلْـــبِ عَمْـــراً خيْـــرُهُم حَسَـــباً ... بِـــبَطْنِ شَـــريانَ يَعْـــوِي عِنْـــدَهُ الـــذِّيبُ

الطّـــاعِنُ الطَّعْنَـــةَ الـــنَّجْلاءَ يَتْبَعُهـــا ... مُثْعَـــنجِرٌ مِـــنْ دِمـــاءِ الجَـــوفِ أُثْعـــوبُ

تَمشـــي النُّســـورُ إِلَيْـــهِ وَهْيَ لاهِيَـــةٌ ... مَشْـــيَ العَـــذارى عَلَيْـــهِنَّ الجَلابيـــبُ

مختتمة أبياتها بالفخر الصريح للمرثي واصفة شجاعتهُ والحسب الرفيع والشرف الكبير فهو في شجاعته تهابه حتى النسور فما أن مات حتى أمنت النسور منه وأصبحت تمشي أمنة لا يذعرها شيئا فهي تأكل بلحم المقتول بلا خوف أو وجل .

لقد مثلت قصائد النساء حافزاً مؤثراً لإدراك الثأر وكانت تثير الحمية لدى الرجال ، فان لم يبلغوا ثأرهم تبدأ بالتهكم والسخرية والأقوال الجارحة المؤلمة كما في شعر كبشة أخت عمرو بن معد يكرب الذي سبق ذكره ، وقول أمُّ قرفة عندما قتل قيس بن زهير ابنها قرفة ، فقبل زوجها حذيفة ابن بدر الغزاري الدية بدلاً من الأخذ بثأره فقالت راثية ابنها ومعيرة زوجها بقبول الدية [36]:

حذيفـــة لا ســـلمتَ مـــن الأَعـــادي ... ولا وُقِّيـــتَ شـــرَّ النائبـــاتِ

أيَقْتُـــلُ قِرفـــةً قـــيسٌ فترضـــى ... بأَنعـــامٍ ونـــوقٍ ســـارحاتِ

أَمـــا تخشـــي إذا قـــال الأعـــادي ... حذيفـــةُ قلبُـــه قلـــبُ البنـــاتِ

فخـــذ ثـــأراً بـــأطراف العـــوالي ... وبـــالبيض الِحـــدادِ المُرْهَفَـــاتِ

وإلا خلّنـــي أَبكـــي نهـــاري ... وليلـــي بالـــدُّموعِ الجاريـــاتِ

لعـــل منيتُـــي تـــأَتي ســـريعاً ... وترمينـــي ســـهامُ الحادثـــاتِ

فـــذاك أحـــبُّ مـــن بعـــلٍ جبـــانٍ ... تكـــونُ حَياتُـــه أَرد الحيـــاةِ

فيـــا أســـفي علـــى المقتـــول ظلمـــاً ... وقـــد أمســـى قتـــيلاً فـــي الفـــلاةِ

تُـــرى طيـــرُ الأَراكِ ينـــوح مثلـــي ... علـــى أعلـــى الغصـــونِ المـــائلاتِ

وهـــل تجـــد الحمـــائِمُ مثـــلَ وجـــدي ... إذا رُميَـــتْ بســـهم مـــن شـــتاتِ

فيـــا يـــوم الرهـــانِ فُجعْـــتُ فيـــه ... بشـــخص جـــاز عـــن حَـــدَّ الصـــفاتِ

ولازالَ الصـــباحُ عليـــك لـــيلاً ... ووجـــهُ البـــدرِ مســـوَّد الجهـــاتِ

وتأمل تلك الأبيات يجعلنا نفهم طبيعة المهمة الجسمية الملقاة على عاتق الرجال في المجتمعات المحاربة لأنهم مسؤولون عن رسم صورة تعكس الفعل المناسب الذي يجعل صاحبه يحظى باحترام زوجته بوصفها الشخص الأقرب له إذ ليس من السهل أن نجد امرأة تدعو على زوجها بهذه الجرأة متجاوزة أعرافاً اجتماعيه تمس هيبة الرجل ، وندرك أن موضوع الثأر يمثل ركناً جوهرياً تمثل القدرة على تحقيقه صلب العلاقة بين الرجل وزوجه وهو موقف يفترق مع موقف آخر تمثل المرأة العاذلة التي تلوم فيه زوجها على كثرة الخروج للحرب وهو اتجاه معاكس .

فالشاعرة في هذه الأبيات رسمت معنى التحريض لإدراك الثأر من القاتل حين بدأت أبياتها بالدعاء على زوجها بعدم سلامته ووقايته من الأعداء ، وانتقلت في البيت الثاني إلى مخاطبة زوجها متعجبة لأمره لقبوله الدية بدلاً عن الدم لاسيما وأن المقتول هو ابنه وعيرته بأن قلبه كقلب

البنات الذي لا يقوي على حمل السلاح ، والقتال . فإن لم يأخذ بثأر ولدها فسبيلها الدموع التي لا تنفك عنها ليلاً ونهاراً متمنية الموت القريب الذي يخلصها من العذاب ، ومن زوجها الذي وصفته بالجبن ، وتنقل الشاعرة بعد التحريض الممزوج بالإهانه والتحقير إلى رثاء ولدها الذي أصبح وحيداً في الفلاة فهي تتأسف على قتله ظلماً ، وتشبه حالتها بطير الأراك ، وهو الحمام النائح على غصون الأشجار فهي تنوح كما تنوح تلك الطيور.

فالشاعرة حرضت ورثت وقوت العزيمة واستنهضت الهمم ، ولاسيما بعد أن ((عزفت على أوتار الرجولة والقوة ، وهذا كفيل بالتأثير على العقول ، كما يؤثر على القلوب ، فيغير المواقف ويبَّدل المواقع ، ولقد استطاعت أم قرفة أن تثني زوجها الذي غازله الوهن وخارت شكيمته ، واستمع لنداء العقل ، فأوشك أن يقبل دية ابنه المقتول ، فا طلقت صرختها ممزوجة بأنوثتها ، فإذا به يتخلى عمَّا أقدم عليه ، لينقلب أسداً هصوراً ، قادراً على أن يطيح برقاب الرجال)) [37].

ومن شعر الرثاء ذي السمة التحريضية قول هند بنت حذيفة بن بدر الفزارية ترثي أخاها حصن ابن حذيفة الذي قتل يوم وقعة حاجر أخر أيام داحس ، فقالت تحرض قومها على الأخذ بثأره[38]

تطـــاولَ ليلـــي للهمـــومِ الحواضـــرِ ... وشَـــيَّبَ رأْسِـــي يـــومَ وقعـــةِ حـــاجرِ

لعمـــري ومـــا عمـــري علـــيَّ بهَـــينٌ ... ولا حـــالفٌ بـــرٌّ كـــآخرَ ذاجـــرِ

لقـــد نـــالَ كُـــرْزٌ يـــومَ حـــاجَر وقعـــةً ... كفَـــتْ قَومَـــهُ أُخـــرَى اللَّيـــالي الغـــوابرِ

فللَّـــهِ عَيْنـــاً مَـــنْ رأَى مثْلَـــه فتًـــى ... تناوَلَـــه بـــالرمحِ كُـــرزُ بـــنُ عَـــامرِ

فيـــا لبِنـــي ذبيـــانَ بكُّـــوا عميـــدَكمْ ... بكُـــلَّ رقيـــقِ الحَـــدَّ أبـــيضَ بـــاترِ

وكـــلّ رُدَيْنـــيٍّ أصـــمَّ كعوبُـــه ... ينـــوءُ بنصـــلٍ كالعقيقـــةِ زاهـــرِ

وكُـــلّ أســـيلِ الخـــدَّ طـــاوٍ كأنَّـــه ... ظلـــيمٌ وجـــرداءِ النِسـالةِ ضـامرِ

فـــإنْ أَنـــتم لـــم تصـــبحوا القـــومَ غـــارةً ... يحـــدثُ عنهـــا واردٌ بعـــد صـــادرِ

وترمـــوا عُقـــيْلاً بـــالتي لـــيسَ بعـــدها ... بقـــاءٌ فكونـــوا كالإمـــاءِ العَـــوَائِرِ

حرضت الشاعرة قومها من خلال هذه الأبيات على الثأر لأخيها بألفاظ قوية جزلة فلم تكن ناتجة باكية تذرف الدموع كما عند الخنساء ، وأم قرفة ، وماريه بنت الديان التي غلبت ألفاظ (النواح ، الدموع ، الحسرة من خلال الأسف والتفجع ، والبكاء ، فظلاً عن تعداد مناقب الميت) فألفاظها أقرب إلى شعر الشعراء الذكور فهي وإن ذكرت لفظة البكاء في قولها (فيا لبني ذيبان بكوا عميدكم) لم تكن باكية وحدها ، وإنما حثت قومها على البكاء فهو فتى الفتيان فالليل بفقدها

إياه طال عليها من الهم ، والحزن حتى شاب شعر رأسها وتقسم بعمرها أن كرز أخاها ألحق بقومه الخزي بما مضى من الأيام والأيام القادمة ، وتوظف لتحريضها وسائل عدة ومنها السيوف التي لابد من استخدامها في الحروب والتي تتصف بمواصفات الجودة . والخيل القوية السريعة وهي صورة مألوفة في أشعار الفرسان ولا نكاد نعثر عليها بهذا الوضوح والإسهاب إلا عند بعض الشاعرات .

وتختتم أبياتها بالتهكم والأقوال الجارحة حين شبهتهم بالعوائر : أي الإماء ولم تقل النساء حتى لا تدخل الحرائر في التشبيه كناية عن الذل ، والضعف . ((فقد استطاعت هند أن ترسم صورة الهوان التي تلحق قومها في حالة تراخيهم عن إدراك الثأر ، فوصفتهم بالإماء ، وزيادة في التنفير من قبول تلك الحالة فقد أسبغت عليهم صفة أخرى أكثر إيلاما ، فوصفتهم بالعواهر)) [39]

وعلى النسق نفسه جاء قول بنت حكيم بن عمرو العبدية راثية أباها ومشبهة قومها بالنساء إن تقاعسوا عن طلب الثأر كما زادت تشبيها آخر وحالة أخرى أحاطت بها المرثي بهالة من القدسية ، فهو ربهم الذي لابد لهم أن يسجدوا له وهم كالمعز المملوكة له ، وهو نفس استعلائي يعبر عن شدة اعتزاز المرأة بالمرثي كما إنه يخرج عن الأطر المألوفة للتحريض ، تقول: [40]

أيرجـــو ربيـــعٌ أن يـــؤُدبَ وقـــد ثـــوى ... حُكَـــيْمُ وأمســـى شـــلوُه بُمطَبَّـــقِ
فـــان كنـــتمُ قومـــاً كرامـــاً فعَجَّلـــوا ... لـــهُ جـــرأةً مـــن بأَســـكم ذات مصـــدقِ
فـــان لـــم تنـــالوا نـــيلكم بســـيوفكم ... فكونـــوا نســـاءً فـــي المـــلاءِ المُخَلّـــقِ
وقولـــوا ربيـــعٌ ربُّكـــم فاســـجدوا لـــه ... فمـــا أنـــتمُ ألا كمعـــزى الحَبَلّـــقِ

وهو أسلوب عمدت إلية بعض الشاعرات يتضمن ((الإهانة والتحقير لحض قومهن على الأخذ بالثأر)) [41].

وقد نلمح عكس هذا الأسلوب من خلال الاستعطاف فقد تتفنن المرأة الراثية في رسم صورة الثكل مخاطبة المحرض كأنها تستعطفه أو لتزيد في صورة المأساة كقول خويلة الرئامية: [42]

يـــا خَيْـــرَ مُعْتَمَـــدٍ وأَمْنَـــعَ مَلْجَـــأٍ ... وأَعَـــزَ مُنْـــتَقِمٍ وأدْرَكَ طالـــبِ
جاءتـــك وافـــدةُ الثَّكَـــالَى تَغْتَلِـــي ... بســـوادها فَـــوْقَ الفَضَـــاءِ الناضـــبِ
عَيْرانـــة سُـــرُح الْيَـــدَيْن شِـــملّة ... عُبْـــر الهَـــوَاجِر كـــالهِزَفّ الخَاضِـــب
هَـــذِي خَناصِـــرُ أُسْـــرَتِي مَسْـــرُودةً ... فـــي الجيـــد مِنْـــي مِثْـــل سِـــمْطِ الكاعـــبِ
عشـــرون مُقْتَـــبلاً وشَـــطْرُ عَدِيـــدهم ... صُـــيّابة مِلقَـــوْم غَيْـــر أشـــايِبِ
طَـــرَقَتْهُمُ أُمُّ اللُّهَـــيْم فأصـــبحوا ... تَسْـــتَنُّ فـــوقِهُمُ ذُيـــولُ حَوَاصِـــبِ

جـــزراً لعافيـــة الخَوامِـــعِ بعـــدما كـــانوا الغِيَـــاثَ مـــن الزَّمَـــان اللاَّحـــبِ
قَسَـــمَتْ رجـــالُ بنـــي أبـــيهم بيـــنهم جُـــرَعَ الـــرَّدى بمخـــارصٍ وقواضـــبِ
فـــأبْرُدْ غَلِيـــلَ خُوَيْلَـــة الثَّكْلـــى التـــي رُميَـــتْ بأثْقَـــل مـــن صُـــخُورِ الصـــاقبِ
وَتَـــلافَ قبـــل الفَـــوْتِ ثـــأري إنّـــه عَلِـــقٌ بثَـــوْبَيْ داهـــنٍ أو ناعِـــبِ

فهي تمزج المديح بالرثاء في قولها مخاطبة ابن أختها تحرضه بقولها (خير معتمد ، امنع ملجأ ، أعز منتقم ، أدرك طالب) وتستخدم أسلوب التصغير (خويلة الثكلى) لتمنح الصورة بعداً مأساوياً مضاعفاً يستنهض إنسانية المخاطب و يعزز اندفاعه لأخذ الثأر .

فألفاظ الثأر واضحة وقلما نجد شاعرة من الشواعر لا تذكرة ، أو تحرض أهلها وقومها تقول بنت بجير بن عبد الله القشيري ترثي أباها المقتول يوم المروت وهو يوم العنابين [43]:

نهُوضـــاً حـــين تعتمـــد الرزايـــا ذَوي الأفعـــالِ بالعبءِ الثقيل
فمـــا كعـــب بكعـــبٍ إن أقامـــت ولـــم تثـــأر بفارِســـها القتيـــل
وَذَحلُهـــم ينـــاديهم مقيمـــاً لـــدى الكـــدّام طـــلاَّبِ الـــذحولِ

وقد تمتزج الأساليب السابقة من بكاء وتحريض وإهانة مع نماذج أخرى من ذلك قول أم الأغر بنت ربيعة أخت كليب وائل ، ترثي غرثان أخي البراق بن روحان [44]:

أَلا فـــابكي أَعينِـــيَ لا تَمَلِّـــي فَلـــي بِمصـــابنا أَبَـــداً عَويـــلُ
فَـــلا سَـــلِمَتْ عَشـــيرتنا وَعـــادَتْ إذا صُـــرِعَ ابـــنُ رُوحـــانَ النَّبِيـــلُ
إذا رُحـــتُمْ وخُلِّفـــتُم هُبِلْـــتُمْ لِغَرثـــانٍ فَـــلا راحَ القَبيـــلُ
فَـــرِحتُم بِالغَنـــائِمِ حِـــينَ رُحـــتُمُ وَبـــانَ بِمَوتِـــهِ الغُـــنْمُ الجَليـــلُ
تـــركتم ذا الحِفـــاظِ وذا السّـــرايا وراءَكـــم أَضَـــلَّكُم الـــدَّليلُ
فقـــل لنـــويرة وكليـــب مهـــلا أقيمـــا إنَّ خزيكمـــا طويـــل

فالشاعرة تعير قومها بقبول الدية مستخدمة ألفاظ تدلل على حالة الذل والهوان فالعرف عند الجاهليين ينص على الأخذ بالثأر وعدم قبول الدية ((فان سكت أولياء القتيل عن ثأرهم كان عارا عليهم ، واعتقدوا أن هامة تشبه الطير تخرج من رأس الميت وتظل تنادي بالثأر ، وبالدم)). [45]

ومن المهام التي أدتها المرأة في الحرب استنهاض الهمم واستثارة المقاتلين مفتخرة ببطولاتهم حتى وإن كانت ترثي فقيدها فكثيراً ما امتزج الرثاء عند النساء بالتحريض ، وكثيراً ما ارتبط بالهجاء ، والفخر ، والحماسة والمدح الذي يعد من أجود المراثي . وهو ما صرح به

الحصري قائلاً : ((ومن أحسن المراثي ما خلط فيه مدح بتفجع على المرثي فإذا وقع ذلك بكلام صحيح ، ولهجة معربة ، ونظام غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين)) (46)

من ذلك قول ذُبيه أو ذئبه ابنة نشبه بن لأيٍ (47)

أَلاَ إنَّ يَـــوْمَ الشَّـــرَّ يَـــوْمٌ بصُـــورَةٍ وَيـــوم فنـــاء الـــدمع لـــوْ كـــان فانيـــا

لَعَمْـــري لقَـــدْ أَبْكَـــتْ قُـــرَيْمٌ وَأَوْجَعُـــوا بِجِزْعَـــةٍ بَطْـــنِ الفِيـــل مَـــنْ كَـــانَ بَاكِيـــا

قَتَلْـــتُمْ نُجُومـــاً لاَ يُحَـــوَّلُ ضَـــيْفُهُمْ وَلاَ يَـــذْخَرُونَ اللَّحْـــمَ أَخْضَـــر ذَاوِيَـــا

قُرُومـاَ يَكُبُّـونَ المَخَـاضَ عَلَـى الـذَّرَى وَيُوفُـــونَ بِالشَّـــحْمِ القُـــدُورَ الغَوَاليَـــا

عِمَـادُ سَـمَائِيُ أَصْـبَحَتْ قـد تَهَـدَّمَتْ فَخِـــرَّي سَـــمَائِي لاَ أَرَى لَـــكِ بَانِيَـــا

فقد مزجت الشاعرة الرثاء بالفخر وهو واضح في البيت الثالث والرابع فقد وصفتهم بالنجوم مفتخرة بكرمهم وشجاعتهم ، وفي الأبيات الأولى رثت القتلى بحالة من الجزع والمأساة التي حلت بها وبقومها جراء ما ارتكب بنو قريم من جرم على قومها وقتلهم سيدها فصورة هذا اليوم بالشر الذي تسلط عليهم لتختتم بانهيار نفسي كبير وزوال الأشياء وانهيارها من أمامها لتجنح في هذا البيت إلى السلم فهي بحاجة إلى الحماية التي قد افتقدتها وعبرت عنها من خلال قولها **(عِمَادُ سَمَائِيُ أَصْبَحَتْ قد تَهَدَّمَتْ)** . فهي لم تر من بعد هلاكهم شيئا وفي هذا تعبير عن اليأس والإحباط لدى الشاعرة .

على أن الفرق بين الرثاء والمدح يكمن أصلاً في كون الأول للموتى والثاني للأحياء وكلاهما مديح مع عاطفة الحزن التي تغلف الرثاء من هنا وجدنا ترابط بينهما غير أن هناك قصائد امتزج فيها رثاء القتلى بمديح الفرسان لاسيما خصال الكرم والشجاعة وهو ما نجده في قول زينب بنت فروة الشيبانية ترثي أباها (48)

بعـــين أبـــاغ قاســـمنا المنايـــا فكـــان قســـيمُها خيـــرَ القســـيمِ

وقـــالوا ماجـــداً مـــنكم قتلنـــا كـــذلك الـــرمحُ يكلـــفُ بـــالكريَمِ

فمدحت الكرم الذي اتصف به المرثي فهو الماجد حتى الرمح يكلف من كرمة فعين أباغ قاسمتهم الموت فأخذت أفضلهم وتركت من دونهم كرماً ومكانة ورفعت فإن صرخوا و ((تنادوا ماجدا منكم قتلنا ، فأجيبوا الرمح يعشق الكرام ويولع بهم)).(49)

وعموما فأن المرأة العربية استطاعت أن تكون سببا غير مباشر في حروب طويلة دامية حين تتغنى بالعصبية القبلية ولعل المرجع في ذلك ((أن المرأة أكثر التصاقا بالبيئة من الرجل ،

وأكثر حرصا على مراعاة العادات الاجتماعية)) [50] ، فرثن وأجدن بشعر ينبع حزنا ولوعة تذيع من خلاله الفخر والحماسة والحض على إدراك الثأر وهو ما يميز شعرهن الحربي إذ قلما تخلو مرثية من مراثيهن من التحريض والحض على إدراك الثأر.

الهوامش

1- ينظر الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي/ 29.
2- الشعر الجاهلي / 91 -92.
3- اثر الصحراء في الشعر الجاهلي / 141 ، ينظر صور الحرب وابعادها الاسطورية كما في قائمة المصادر في الشعر الجاهلي /30.
4- مقدمة ابن خلدون 823/2 .
5- فنون الادب العربي الفن الغنائي في الرثاء كما في قائمة المصادر/ 14.
6- ديوان امرؤ القيس /257، الفئام: الجماعات من الناس ،مالك وكاهل قبيلتان من بني أسد.
7- نهاية الأرب في فنون الأدب 117/3.
8- في قائمة المصادر ديوان الخنساء /277.
9- صور الحرب في الشعر الجاهلي /62 .
10- شق الجيوب ونعي الميت من المظاهر التي حرمها الدين الإسلامي ونهى عنها الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) قال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) ((ليس منا من ضرب الخدود ، أو شق الجيوب ، أو دعا بدعوى الجاهلية)) صحيح البخاري فصل الجنائز104/2.
11- في قائمة المصادر ديوان الخنساء /63-64.
12- نفسه /62 -63.
13- نفسه /63.
14- شعر بني تميم في العصر الجاهلي /247، وينظر البيت الثاني وما بعده في العقد الفريد 101/6.
15- دراسة مقارنة للملاحم الأيام العربية في ضوء الأساطير والملاحم الكونية السومرية والسامية /261.
16- شعر الحرب عند العرب / 30.
17- شرح ديوان الخنساء / 290 – 293.
18- نفسه /301وما بعدها.
19- الموثبات في الشعر العربي قبل الإسلام /23.

20- العمدة 153/2.
21- شرح أشعار الهذليين 583/2-584.
22- ينظر رثاء الأخوة عند شاعرات العرب في الجاهلية التشكيل وجماليات الأداء .
23- شاعرات العرب /38 ، وينظر العمدة 154/2 ، والتعازي والمراثي /169.
24- العمدة : 2 / 153 .
25- التعازي والمراثي /169.
26- خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجددة /427.
27- شعر القحطانية قبل الإسلام دراسة موضوعية فنية /156.
28- شاعرات العرب / 67.
29- الموثبات في الشعر العربي قبل الإسلام / 367 .
30- نفسه /215.
31- ينظر تناص البنى اللغوية والموضوعية.
32- شرح ديوان الحماسة ، للخطيب التبريزي 118/1 ، وينظر البيت الأخير في خزانة الأدب 357/6.
33- نفسه 1/ 118.
34- الأشعار الموثبات في الجاهلية /112.
35- - منتهى الطلب من أشعار العرب 305/9-306.
36- شاعرات العرب /43.
37- رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري /117.
38- ديوان شعر الأيام /356 .
39- الموثبات في الشعر العربي قبل الإسلام /.75
40- شاعرات العرب / 104.
41- الصورة في شعر الرثاء الجاهلي /77.
42- الامالي 127/1.
43- أشعار النساء /64.
44- - شاعرات العرب / 35.
45- - الشعر في حرب داحس الغبراء /90.
46- زهر الآداب 999/4.
47- شرح أشعار الهذليين 849/2
48- شرح ديوان الحماسة للتبريزي 179/2.
49- نفسه 179/2.
50- الصورة في شعر الرثاء الجاهلي /78

المصادر

1- اثر الصحراء في الشعر الجاهلي ، سعدي ضناوي ، ط1 ، دار الفكر اللبناني – بيروت 1993.

2- الأشعار الموثبات في الجاهلية ، د. نوري حمودي القيسي ، مجلة الأقلام ، – الجزء الرابع – بغداد –1964م.

3- أشعار النساء، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ،(ت 384هـ) تحقيق د. سامي مكي العاني و د. هلال ناجي ، ط1 ، عالم الكتب– بيروت 1995.

4- الأمالي لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ، تقديم محمد بن الجواد الأصمعي بدار الكتب المصرية ، ط2 ، دار الكتب العلمية – بيروت .

5- التعازي والمراثي ،أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد (ت 286هـ) تحقيق خليل منصور ،ط1، دار الكتب العلمية –بيروت 1996م.

6- تناص البني اللغوية والموضوعية دراسة في تكرار الصور والتراكيب في القصيدة الجاهلية وأثرها في بناء النص– مجلة جامعة الانبار– اللغات والآداب – العدد 2 لسنة 2010 – د. نصرة أحميد الزبيدي

7- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ،عبد القادر بن عمر البغدادي(1030–1093) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط3 ، مكتبة الخانجي – القاهرة 1997.

8- خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجددة ، د. محمد صادق حسن عبد الله ، دار الفكر العربي – القاهرة (د.ت).

9- ديوان امرؤ ألقيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط5 ، دار المعارف – مصر 1958.

10- ديوان الخنساء ، شرح ثعلب أبو العباس أحمد بن سيار الشيباني النحوي ، تحقيق أنور أبو سويلم ، ط1 ، دار عمار – الأردن 1988.

11- ديوان شعر الأيام ، د. عفيف عبد الرحمن ، ط1 ، دار صادر –بيروت 1998.

12- رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، د.مخيمر صالح موسى ، ط1، مكتبة المنار،الزرقاء– الأردن.

13- رثاء الأخوة عند شاعرات العرب في الجاهلية التشكيل وجماليات الأداء . د. نصرة أحميد من بحوث المؤتمر العلمي الثالث للغة العربية وعلوم القرآن ، كلية التربية للبنات / الجامعة الإسلامية –بغداد 3– 4 / أيار /2011.

14- زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت 453هـ) ، تحقيق د. زكي مبارك ، ط2 ، دار الجليل – بيروت .
15- شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، بشير يموت ،ط1،المكتبة الأهلية –بيروت 1934.
16- شرح أشعار الهذليين صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ،تحقيق عبد الستار أحمد فراج ،مراجعة محمود محمد شاكر – مطبعة المدني – القاهرة (د.ت).
17- شرح ديوان الحماسة ،أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي الشهير بالخطيب ، عالم الكتب – بيروت .
18- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، د. يوسف خليف ، ط3 ، دار المعارف – مصر 1978.
19- شعر بني تميم في العصر الجاهلي ، د. عبد الحميد محمود المعيني ، منشورات نادي القصيم الأدبي –السعودية 1982.
20- الشعر الجاهلي ، د. محمد عبد المنعم الخفاجي ، ط2 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت – لبنان 1973 .
21- شعر الحرب عند العرب ، د. نوري حمودي القيسي ، الموسوعة الصغيرة ، منشورات دار الجاحظ للنشر – العراق 1981.
22- الشعر في حرب داحس الغبراء ، د. عادل جاسم البياتي ، مطبعة الآداب في النجف 1969.
23- صحيح البخاري تقديم احمد محمد شاكر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان 1313هـ .
24- الصورة في شعر الرثاء الجاهلي ،صلوح بنت مصلح بن سعيد السر يحي ،أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية التربية للبنات –جدة 1998.
25- صور الحرب وأبعادها الأسطورية في الشعر الجاهلي ، ابتسام نايف صالح أبو الرب ، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة النجاح – فلسطين 2006.
26- العقد الفريد ،أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت 328هـ) ،تحقيق عبد المجيد الترحيني ،ط1 ،دار الكتب العلمية – بيروت 1983.
27- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،أبوعلي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (390-456هـ) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط5 ، دار الجليل 1981.

28- فنـون الأدب العربـي الفـن الغنـائي الرثـاء ، د. شـوقي ضـيف ، ط4 ، دار المعـارف – مصر.

29- مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، تحقيق د. علي عبد الواحد الوافي ، ط2 ، لجنة دار البيان – القاهرة 1965.

30- دراسـة مقارنـة للملاحـم العربيـة مقارنـات فـي ضـوء الأسـاطير والملاحـم الكونيـة السـومرية والسامية ، د. عادل جاسم البياتي ، مطبعة دار الجاحظ ، بغداد 1976 .

31- منتهى الطلب من أشعار العرب ، جمع محمد بن مبارك بن محمد بن ميمون ، تحقيق وشرح ، د. نبيل طريفي ،ط1 ، دار صادر – بيروت 1999.

32- الموثبـات فـي الشـعر العربـي قبـل الإسـلام ، جمـع وتحقيـق ودراسـة د. محمـد فتـاح عبـد الجيـاوي رسـالة ماجسـتير مقدمـة إلـى كليـة الآداب –جامعـة بغـداد ، مطبوعـة بالآلـة الكاتبـة 1981.

33- نهايـة الأرب فـي فنـون الأدب ،شـهاب الـدين أحمـد بـن عبـد الوهـاب النـويري ، تحقيـق مفيـد قميحة وجماعة ،ط1 ، دار الكتب العلمية – بيروت 2004.